٥ في الدين والتراث

(طبقًا لما يقول أرنست رينان - بحق - فالفكر القديم ليس قادرًا على أن يقدم لنا شيئًا ، وأن علينا لذلك ألّا نطالبه بأكثر من نفسه هو) ص ٦ .

بهذا يقدم هادى العلوى كتابه (فى الدين والتراث)[١] ، الذى ينحو منحى صادق جلال العظم فى مهاجمة الإسلام والمسلمين بصورة أكثر عريًا وأشد تبجحًا .

تقول سطوره الأولى : (مبدئيًا ، ليس بين الإسلام والاستعمار تناقض ، فالاستعمار لا يحارب الأديان ، لأنها أصلا لا تحاربه ، والإسلام كعقيدة لا شأن له مع الاستعمار ، وقد استطاع المتدينون المسلمون ورجال الدين الإسلامى ممارسة طقوسهم وواجباتهم الدينية فى ظل الحكم الاستعمارى بكل أشكاله : احتلال ، حكومات عميلة . . ومن غير أن تثار فى وجوههم أية مشكلة بسبب ذلك) ص ٨ .

عبارة لا يجرؤ الاستعمار نفسه على أن يقولها لا بسبب الخلل فى التركيب ، إذ إن عدم محاربة الاستعمار للإسلام فرضًا - لا يعنى عدم التناقض ، فقد تكون المهادنة وسيلة لتجنب صراع يسبب متاعب ما أغناه عنها ، ثم إن المصالح الاستعمارية لا يمكن بحال ألّا تتعارض مع مصالح الشعوب الإسلامية ، يكفى أن يكون المستعمر دخيلا على هذه الشعوب ، يشاركها قوتها ، ويهدد مسيرتها ، ولقد

---

(١) دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٣

حارب الإنجليز بعضهم بعضًا على الأرض الأمريكية لمجرد أن بعضَهم سبق إلى هذه الأرض واستأثر بها . . هذا . . وإنّ تاريخ الاستعمار فى أفريقيا وآسيا يمثل حربًا مستمرة ضد الإسلام ، وضد اللغة العربية ، بصورة ضارية ، ومن يقرأ العناوين الرئيسية - دون أن يقلب فى صفحات التاريخ الأسود الطويل يتعرف إلى ما صنعته فرنسا بالإسلام واللغة العربية فى الجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا ومالى وتشاد والنيجر وغينيا والسنغال والصومال (الفرنسى) وسوريا ولبنان ، ويتعرف إلى ما صنعته إيطاليا بليبيا والصومال (الإيطالى) وإرتريا ، ويتعرف إلى ما صنعته إنجلترا فى مصر والسودان وفلسطين والعراق واليمن وفى الهند وأفغانستان وإيران ونيجيريا وغانا وتنجانيقا وزنجبار ويتعرف إلى ما صنعته هولندا بأندونسيا وساحل الخليج العربى وشرق أفريقيا ، ويتعرف إلى ما صنعته روسيا بالشعوب الإسلامية . من الخزر والترك والفرس والأرمن ، الذين ضمتهم إلى الاتحاد السوفيتى واستنزفت عقديتهم ودماءهم وأموالهم . . ولا يخفى ما تحدثه الآن فى أفغانستان واليمن وإرتريا والصومال وسوريا ولبنان وتشاد .

ولقد استدرك الكاتب خطأه ، فى هذا التعبير . فقال (والكلام بلا فواصل) :

(ولكن الاستعمار وجد نفسه أكثر من مرة أمام مجابهة ترتدى ثوبًا إسلاميًّا ، كما حصل - على سبيل المثال - فى حركة الجامعة الإسلامية التى نادى بها جمال الدين الأفغانى ، وفى حركات التحرر الوطنى فى المغرب العربى ، حيث ارتبط النضال ضد الاستعمار الفرنسى ببقايا ثقافة إسلامية رافقت وعززت الأهداف الوطنية والقومية لكفاح المغاربة ، وأخيرًا فى ثورة العشرين العراقية ، التى قادها رجال الدين الشيعة (! !) ضد الاحتلال الإنجليزى للعراق ، فى معالجة أزمات كهذه كان الاستعمار مضطرًا إلى شن هجوم أيديولوجى ضد الإسلام ، ووسيلته إلى ذلك هى التبشير والمحتوى الثقافى لتبشير دينى بحت ، يشرح مزايا المسيحية والمسيحيين ،

ومساوئ الإسلام والمسلمين ، هادفًا إلى زعزعة العقيدة الدينية لهؤلاء وتحويل أفكارهم باتجاه المسيحية دين المستعمر) ص ٨/٩ .

فإذا كان الأمر كذلك ففيم كانت العبارة قبل . إلّا إذا كان الكاتب مدفوعًا بحقد أسود لمهاجمة الإسلام والمسلمين ، لأن العقيدة الدينية هى التى لا تزال الصخرة الصامدة فى وجه المدّ السوفيتى والتعاليم الماركسية ؟

قد تجد التحركات الإسلامية اليوم عونًا من جهات غير إسلامية اعترافًا منها بقدرة العقيدة الدينية على مواجهة المد الإلحادى التخريبى الدموى .

ولقد تحالف من قبل الإنجليز والفرنسيون والأمريكان مع الاتحاد السوفيتى فى مواجهة النازية ، وكلمة تشرشل – عن استعداده للتحالف مع الشيطان (الروسى) للدفاع عن بلاده – مشهورة .

لكن هذا العون لا يمكن أن يحوّل التصادم (إلى نوع من الوفاق) يستخدم فيه الإسلام ستارًا لتنفيذ مشاريع استعمارية) ، وليس صحيحًا أنه (قد حصل مثل ذلك فى السودان على يد الحركات الدينية كالمهدوية والإخوان المسلمين ، وفى الجزيرة العربية على يد أسرة آل سعود ، ومؤخرًا فى أندونسيا ، ومن أبرز وأقوى أشكال التحالف ما تمخّض عن إقامة دولة الباكستان التى وضعت – منذ لحظة ميلادها – فى خدمة المصالح الإنجليزية والأمريكية) ص ٩ .

إن مثل هذا القول الجزاف بعيد كل البعد عن المنطق السياسى والمنهجية العلمية ، لأن الحركة الدينية لا تنشأ على أرضها مقطوعة الصلة بالعالم ، لأنها جزء من التيارات المتصارعة على هذا الكوكب ، وكما تهبّ الرياح على مكان حين يسخن الجوّ أو يبرد فى مكان آخر ، وتسقط السحب فى غير مكان إنشائها كذلك الاتجاهات الفكرية والعقائدية تتأثر وتتحرك بحركة ما يجرى فى العالم ، لكنها – بقدر أصالتها وأصالة القائمين بها لا تزيف ولا تنحرف ، وإن لبست ثيابًا ملونة تفرضها طبيعة المناخ أو طبيعة اللعبة السياسية .

وإذا كان الشيخ محمد الخالصى قد أعلن (فى رابعة النهار) عن (وجوب الاتفاق مع الإنجليز والأمريكان وغيرهم من مستعمرى أوربا المسيحية ضد الشيوعيين، لأن أولئك أهل كتاب وهؤلاء ملاحدة) ص١٠، فإن دعوة هذا الشيخ - وهو ابن الشيخ مهدى الخالصى أحد زعماء ثورة العشرين العراقية. ضد الاستعمار الإنجليزى - إنما هى دعوة (المحالفة مع الشيطان) فى مواجهة الوباء الذى يهلك الحرث والنسل.

وإذا كان الاستعمار لا يحارب الأديان - كما يزعم الكاتب - ألا يُستعان به ضد أعداء الدين؟

ماذا يفعل أبناء أفغانستان اليوم إذا لم يجدوا غير العون الأمريكى؟

إن أخطر ما تصاب به الدول (النامية) اليوم أن يبلغ ببعض أبنائها الولاء لدولة أخرى حدَّ التخلى عن الوطن والدين والتاريخ.

الإسلام والاستعمار الثقافى

(تتمركز الدراسات الغربية لتاريخ الإسلام حول محاولة إلغاء الوجود التاريخى للحضارة الإسلامية، أعنى سلبها تلك المساهمات الفعلية فى حضارة العالم القديم، وإنزال دورها فى التاريخ الإنسانى إلى مرتبة الصفر وقد نهض بهذا العبء المستشرقون) ص١٢.

لكن من المستشرقين من لجأ (إلى حضيض الشتم الذى يمارسه صغار الصحفيين) أمثال الأب لامانس، ولكن هذه الطريقة (مفضوحة ومنفرة للغاية) ومنهم من أخذ منهج البحث العلمى ستارًا يعمل من ورائه على (تفريغ الظاهرة من أى محتوى إيجابى يحتمل أن يكون قد حقق لها تأثيرًا فى مجالها المخصوص.. ويمكن أن يشار فى حدود هذا المخطط إلى الكثير من كتابات كبار

المستشرقين أمثال لويس ماسنيون ، وهاملتون جب ، ومنتغمرى وات ، وروزنتال ، وهنرى كوربان ، فضلا عن سابقيهم دى بور،وفلهوزن ، وكولدزيهر ، وغيرهم) ص ١٢/١٣ .

ويدعو إلى هذا الموقف (حاجة الاستعمار إلى المزيد من الأسلحة ، فى صراعه ضد الشعب العربى والشعوب الإسلامية بوجه عام ، ويحقق هذا المسعى للمستعمرين منافع استراتيجية خطيرة ، وعلى سبيل المثال : تجريد الشعوب من خصائصها القومية ، تشكيكها فى قدراتها الذاتية على التطور ، تأكيد الفلسفات العرقية ، تصوير تخلفها الحالى كما لو كان امتداداً لتاريخ طويل من التأخر والهمجية) ص ١٤ .

فإذا كان هذا هو موقف (الشوفينية الأوربية) فما علينا نفعل لنحمى أنفسنا من هذه الأساليب الخبيثة ؟ .

يقول السيد الباحث الذى سبق أن قرر وجود وفاق بين الاستعمار والإسلام :

(لم يعد للقوى الثورية – فى منطقتنا العربية – من مبرر لإبقاء علاقتها مع العقائد الدينية ، أيًا كان شكلها ، إن الأيديولوجية الثورية تتعارض فى جوهرها مع الدين ، وليس للدين بدوره أن يقدم أية مساهمة فى كفاحنا الحالى ضد الاستعمار والإمبريالية) ص ١٤ .

فأين تقف هذه القوى الثورية ؟ فى صف الاستعمار الغربى الذى (يجرد الشعوب من خصائصها القومية) . وأبرز هذه الخصائص الدين واللغة والتاريخ ؟

* * *

ويقول : يجب الفصل بين الدين والتراث ، إذ (يختلف الموقف من الدين عن الموقف من التراث ، إن ثقافتنا يمكن – بل يجب – أن تستغنى عن الفكر الدينى ، ولكنها لا تستطيع الانفصال عن التراث الفكرى للإسلام) ص ١٥ .

فأين يسكن هذا (الفكر الدينى) إذا لم يكن فى (التراث الفكرى للإسلام) ؟

يقول (يؤكد لينين أن الثقافة القومية ذات طابع مزدوج ، إذ هى تتضمن بالإضافة إلى الثقافة السائدة للطبقة الاستغلالية عناصر من الثقافة الديمقراطية الاشتراكية ، ذلك لأن فى كل أمة جماهير كادحة مستغلة ، ويوضح الكاتب السوفيتى فلا ديميرغوريونوف – فى تحليله لهذه المقولة اللينينية – أن العناصر الديمقراطية هى الجزء غير القابل للاستبعاد من التراث والذى ينبغى أخذه بالضرورة لبناء الثقافة الجديدة) ص ١٥/١٦ .

وماذا يفعل الاستعمار الغربى غير أن يركز على الجوانب (السلبية) التى تخدم أهدافه ؟

إذن ، فالموقف واحد ، دون حاجة إلى منهجيات علمية ، فكل تراث فيه الطيب والخبيث ، والسمين والغث ، والكلاب عادة لا تأوى إلّا إلى الجيف .

فإذا كان عند (السادة) الشيوعيين – (التفسير المادى للتاريخ هو النظام الأمثل لضمان تقييم سليم للظواهر المدروسة) ص ١٧ فإن (المنهجية الموضوعية) عند (السادة) الرأسماليين هى (النظام الأمثل لضمان تقييم سليم للظواهر المدروسة) .

فماذا نحن فاعلون ، وقد وضعنا (الثوريون) بين اختيارين ترفضهما مصالحنا الحيوية ومقوماتنا القومية ؟

وإذا كانت هذه (الظاهرة التاريخية) مرتبطة خيوطها بالعقيدة الدينية ، فكرًا ومناخًا وأسلوب حياة ، فكيف لمن ينكر الدين ويحاربه أن يهتدى إلى (قرار عادل جدير بالاحترام) ؟

إذا كان الباحث (يستطيع بتقييم آحادى الجانب أن يمسك بأرسطو ويطرحه فى مزبلة التاريخ فيما لو أخذ بنظر الاعتبار نظرياته الفلكية ، كما يستطيع باحث آخر أن يعتبر أرسطو ماديًا من الطراز الأول إذا استند إلى جوانب معينة من فلسفته الطبيعية) هامش ص ١٨ فكيف نطمئن إلى ما يفعله الشيوعيون أو الرأسماليون وهم يتوجهون إلى التراث بدوافع (سياسية استعمارية) ؟

أليس من واجبنا أن نتوجه إلى التراث العربى الإسلامى بروح عربية إسلامية بحيث تستجيب الأصالة التاريخية للأصالة الذاتية فتكشف عن حاجتنا لتدعيم حاضرنا ومستقبلنا ؟

نحن نعيب على المستشرقين دراستهم للأدب العربى ، لأنهم يتعاملون مع ظاهر الدلالة اللغوية دون القدرة على اكتناه موحياتها فتذوق اللغة والتفاعل معها لا يتوافران بمجرد دراستها لأن للغة علاقات نفسية ذات أبعاد مختلفة ، ومن هذه العلاقات النفسية الولاء القومى : دينًا ولغة وتاريخًا وعادات وتقاليد .

ولقد تحول الولاء القومى عند الشيوعيين - للأسف - إلى ولاء مذهبى حزبى ، ومن ثم كان من اليسير على الماركسى أن يضحى بدينه ووطنه وقومه على مذبح (الشيطان الأحمر) فكيف يحكم أمثال هؤلاء فى تراث (عربى إسلامى) ؟

* * *

ويقول : (يتعين أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن تراث الإسلام لا يمثل - حتى فى أقدم أدبياته : القرآن والحديث وسلوكيات وأفكار الصحابة والتابعين - موقفًا واحدًا يمكن أن تتحدد خصائصه تحديدًا نهائيًا وقاطعًا) هامش ص ٢٢ .

وهذا القول يتردد على أقلام اليساريين وأشياعهم ، من صادق العظم إلى غالى شكرى ، ومع هذا فإن أحدًا لم يسأل نفسه : هذا (الموقف الواحد) ، من أى شىء ؟ من الخالق ؟ من المخلوق ؟ من الخير ؟ من الشر ؟ من الحلال والحرام ؟ من الحقوق والواجبات ؟

هل ثمة اختلاف فيما جاء به القرآن ؟ فيما جاءت به السنة ؟ فيما بين القرآن والسنة ؟

هل قال الصحابة أو التابعون بغير ما جاء فى القرآن والسنة أو بما يخالفهما ؟

لو أن هؤلاء اليساريين يقرءون فى أصول التشريع الإسلامى لكان لهم أن يضعوا أيديهم على مكامن الداء ، فيحق لهم أن يتاجروا بها . . أما أن يقف الأمر

عند مجرد الافتراءات المطلقة ، فهذا ما لا ينبغى الالتفات إليه .

والسيد الكاتب نفسه يعترف بأن المنابع التى ينهلون منها ، ثم يتقيئون ما ينهلون ليست صالحة للأخذ بها ، لأن (المعالجات الماركسية للتراث الإسلامى تواجه معضلتين ، أولاهما : عدم الإحاطة بالظواهر المدروسة ، تلك المشكلة اللازمة لأكثر المستشرقين ولكثير من الكتاب العرب أيضًا ، ولا عذر للباحث فى التمسك باستقراء ناقص يستند إليه تصوره لأية ظاهرة يدرسها ، والثانية : تترتب على الامتدادات المعاصرة لحضارة الإسلام ، من جهة ارتباطها بالدين) ص ٢٢/٢٣ .

فإذا كانت الحضارة الإسلامية مرتبطة بالدين على امتداد التاريخ الإسلامى إلى اليوم ، وإذا كانت (المعالجات الماركسية لا تملك الإحاطة بالظواهر المدروسة) ، فكيف نجرؤ على أن نصدر أحكامًا مطلقة ، ترددها أبواق صماء ، لا تملك القدرة على المناقشة والمراجعة ؟ .

تشريع الاستبداد . ونشوء البيروقراطية فى الإسلام . .

تحت هذا العنوان المثير يقول :

(كانت الشريعة هى الدستور المرعى للدولة ، فى زمن النبى محمد والخلفاء الراشدين ، مع فترة استثنائية من ثلاث سنوات ، تستغرق حكم عمر بن عبد العزيز ، فى هذا العقد كانت أعمال الخلفاء مقيدة بأحكام الكتاب والسنة ، وما أدى إليه اجتهادهم فى الأمور المسكوت عنها فى هذين الأصلين) ص ٢٨ فمن أين جاء الاستبداد فى التشريع إذن ؟

يقول : (إن الدولة الإسلامية استمرت تحكم بلا دستور ابتداءً من معاوية حتى سقوط الخلافة العباسية) ص ٣٠ .

وعلى هذا ، فالذنب ذنب حكام بنى أمية وبنى العباس ، وليس ذنب الدستور ، لكنه يقيم الحجة على الشريعة ، بأن (السلطة كانت فى ممارستها لهذه

السياسة فى حاجة إلى مرتكز أيديولوجى ، وقد وفرت المبادئ الدينية مادة كافية لهذا الغرض) ص ٣٥ .

وفى بحثه خلف هذا (المرتكز الأيديولوجى) يذكر أن عبد الله بن عمر (اختطّ لنفسه موقفًا من السلطة يقضى بطاعة كل خليفة) ، وأنه قال (لا أقاتل فى الفتنة وأصلى وراء غالب) ص ٣٦ وأن الحسن البصرى أفتى بأن (أفعال المستبدين قد تكون عقوبة من الله على عصيان الناس لأوامره وقد تكون بلاءً منه يمتحن به العباد) ص ٣٨ وأن هذه الفتوى كانت (لمنع الانتفاضة المسلحة التى كان العراقيون ينوون القيام بها ضد الحجاج ، والتى عرفت فى التاريخ باسم حركة ابن الأشعث ، وكان الحسن البصرى معاديًا للحجّاج والأمويين ، ولكنه ضد المعارضة المسلحة) ص ٣٨ .

أى أن المأخذ على موقف الرجلين بسبب المسالمة حفاظًا على الصف الإسلامى ، فى وقت انتشرت فيه الفتن ، وقاتل المسلمون بعضهم بعضًا .

ولو أن هذا الموقف مدان ، لأنه يحاول إطفاء الحريق ، بدلا من أن يمدها بالوقود ، فما ذنب الشريعة ؟

يقول : (من الجدير بالملاحظة أن عقيدة الجبر مستمدة أصلا من القرآن ، وتوجد آيات تنص على الإرادة الحرة للخالق وتدخله المباشر فى تعيين الرزق والعمر ، بل وسائر الأحداث فى المجتمع والطبيعة) ص ٣٩ وكذلك الحال بالنسبة للقدرية ، فهم يجدون فى القرآن آيات (تنص على الإرادة الحرة) للإنسان وأنه مسئول عن عمله (كل نفس بما كسبت رهينة) (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) . . (من عمل صالحًا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلّام للعبيد) .

رصيد موفور من الآيات الكريمة تحدد مسئولية الإنسان ، وتدعوه إلى أن يسعى ويمشى فى مناكب الأرض ، طلبًا للرزق ، وأن يجاهد فى سبيل الله - إلى جوار

تحقق الإرادة الإلهية ، وقد عالج القدرية والأشاعرة ، فى كتبهم الكثيرة ، موضوع الكسب والاكتساب الجبر والاختيار علاجًا فلسفيًّا رائعًا ، سبقت الإشارة إليه (ص ٧٦ وما بعدها) خلال مناقشة أوهام الدكتور تيزينى .

على أن (من المدهش أن تقترن هذه العقيدة عقيدة الجبر بمستوى رفيع من الاندفاع فى العمل من أجل الدعوة . . ويستخلص بليخانوف من هذا الوجه دليلا على أن الجبرية قد تلعب دورًا إيجابيًّا فى التاريخ) ص ٣٩/٤٠ . لأن هذا المذهب ليس أساسه السلبية أو التواكلية ، وإنما أساسه تنزيه الله عن أن يشاركه فى ملكه أحد ، أو مرد الأمر إلى الله ، تأدبًا وتعظيمًا لأن (بيده ملكوت كل شىء) .

هذا إلى أن (شيوع الجبرية قد أدى أحيانًا إلى اعتناقها كعقيدة فلسفية دون أن تعنى بالضرورة مساندة السلطة) هامش ص ٤١ . وإذا كان أحمد بن حنبل قد رفض (مقاطعة المأمون وخلفائه برغم تبنّيهم للهرطقة المعتزلية) ص ٤١ فإنه رفض الاستجابه لإرادة المأمون والمعتصم من بعده أن يقول بخَلْق القرآن ، واحتمل محنة التعذيب والسجن .

وإذا كانت (العقيدة الشيعية بفرعيها الإمامى والإسماعيلى تظهر الخلافة كما لو كانت جزءًا من الوحى الإلهى ، ويعتبر وجود الأئمة الشيعة من هذه الناحية استمرارًا للنبوة) ص ٤٣ ، فهذا شأن الشيعة فيما يذهبون ، ولا علاقة لهذه المزاعم بالتشريع الإسلامى ، وسواء كان مرد هذه المزاعم إلى دسائس اليهودى عبد الله بن سبأ وشيعته ، أو هى من صنع الانتكاسات التى مُنى بها الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، فإن مثل هذا الضلال يحدث إلى الآن ، فما يزال المتسلقون يبالغون فى تعظيم ذوى السلطان ، ويجعلون منهم هياكل مقدسة ، يستوى فى ذلك المعز لدين الله الذى قال فيه ابن هانى الأندلسى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وجوزيف ستالين الذى كتب فى نعيه أحد المتطلعين إلى الرعاية مقالا يقول : (مات نبى الله ستالين) .

* * *

هذا عن الاستبداد ، أمّا عن البيرقراطية فقد نبتت جذورها فى عهد عمر بن الخطاب ، إذ (وصف عمر نفسه بأنه كان شديدًا مهيبًا ، وكان الناس إذا أرادوا أن يكلموه فى حاجة وسطوا عبد الرحمٰن بن عوف لاختصاصه به ، ولكن عمر لم ينعزل عن جمهوره وقد أبدى تخوفه من أن ينعزل الولاة فكان يشترط عليهم ألّا يتخذوا حاجبًا) ص ٤٤ .

فما ذنب عمر إذا كان مهيبًا ؟ وهو القائل : (إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى) ، فلما قال أحدهم : (والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا) حمد عمر الله لأنه وجد فى أمة محمد من يقوّمه بسيفه .

وحين راجعته امرأة – وهو على المنبر – فى أمر المهور ، قال أصابت امرأة وأخطأ عمر . .

فمن أى طريق يصل هذا (العلوى) إلى مثالية عمر ؟

يقول : (وفى الطبرى نص كتاب أرسله عمر إلى أبى موسى الأشعرى ، أحد ولاته على البصرة ، يقول فيه : « إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك وجوه الناس ويحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم وفى القسم) ص ٤٥ .

ومن أجل أن الناس فى المجتمع القبلى وفى أى مجتمع يستعينون بغيرهم فى رفع حوائجهم تصبح (هذه التوصية نذيرًا بإنهاء الصلة المباشرة بين السلطة والجمهور) ص ٤ ، كأن على عمر أن يوصى بالضرب على أيدى وجوه الناس الذين يؤدون خدمات اجتماعية ، أو بالضرب على أيدى من يستعينون بهم . . وهذا (الهادى العلوى) يعلم ماذا يحدث فى مجتمع الحزب الواحد ، إذ يتوقف قضاء

الحاجات على رجال الحزب ، أو من يلوذون بهم لكنه (الأفن) الذى يعيب (امتناع الخلفاء الراشدين عن اتخاذ الحرس الخاص ، برغم الإشارة عليهم به لأغراض الصيانة) بأنه (تصرف ينطوى على السذاجة) ص ٤٦ ، فإذا أقام معاوية الحرس الخاص والبوابين اتهمه بالاستبداد والانعزال عن الشعب ص ٣١ ، فأين الصواب يا ترى ؟ .

وبعد أن يبالغ فى اتهام الحكم الأموى (بالجبرية والخيلاء) ص ٤٦ يقول :

(إن الخليفة الأموى حافظ – مع شراسته وعنفه – على البساطة فى شكليات السلطة ، باتجاه يعكس قرب الصلة بالبداوة ، طبقًا لنظرية ابن خلدون) ص ٤٧ .

ولما كان العباسيون قد وصلوا إلى الحكم عن طريق السيف ، ولما كانت هناك عناصر كثيرة تعمل ضدهم فى الخفاء وفى الجهر ، ولما كانت النظم الفارسية قد أخذت طريقها إلى جهاز الدولة ، سياسيًا وإداريًا ، فقد حق لأبى حيان التوحيدى أن يقارن (بين هذا الأسلوب وأسلوب الناس فى مخاطبة ربهم ، فيلاحظ أن الناس يتجرءون على مخاطبة الأخير (! !) مباشرة ، مستعملين ضمير المخاطب ، فى حين لا يستطيعون ذلك مع رجال الدولة) ص ٤٩ . مع ملاحظة أن التوحيدى ذكر ذلك فى (مثالب الوزيرين)[1] ، ومع ملاحظة أن حكام الكرملين – شأنهم شأن جميع حكام العالم – لا يتحركون إلّا وسن حولهم جيش من الحرس الخاص العلنى ، والسرى ، فضلا عن رجال الأمن المركزى ، ورجال الأمن العام . ومباحث أمن الدولة ، إلى آخر هذه الأجهزة التى شكلت فى الدرجة الأولى لحماية الحكام على حساب الكادحين البروليتاريين ! !

---

(١) كتاب فى نعدد مثالب الوزيرين : الصاحب بن عباد وابن العميد – حققه ونشره إبراهيم الكيلانى دمشق سنة ١٩٦١

تحريم كنز الأموال . . أسراره ومتعلقاته . .

يتناول الآية الكريمة (٢١٩) من سورة البقرة :

(ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو)

والآيتين الكريمتين (٣٤ - ٣٥) من سورة التوبة :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

ويورد ما قيل فى تفسير الآيتين ، ثم يقول : (إن المفسرين الذين قالوا بالنص على حرمة التملّك فى آيتى العفو والكنز مجمعون على أن هذا الحكم أُبطل بعد أن شرعت الزكاء ، والظاهر من الروايات أن الزكاة شرعت حلا للخلاف الناشئ من استثقال بعض الصحابة لتحريم الكنز ، ولا يخفى العديد من الصحابة والمفسرين ارتياحهم للنسخ ، وإعجابهم بالزكاة التى طَهّرت أموال المسلمين وحرّرتها من القيود) ص ٦٥/٦٦ .

ثم يصور موقف الصحابة من إنفاق ما زاد عن الحاجة ، والأخذ بالزكاة على شكل فريقين ، فريق على رأسه عثمان بن عفان ، الذى يمثل الأغنياء وفريق على رأسه على بن أبى طالب الذى يمثل الفقراء .

فالفريق الأول يناصر الزكاة ، بموجب الآية الكريمة (١٠٣) من سورة التوبة : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ، وفى سبيل ذلك عمد إلى الادعاء بنسخ آيتى العفو والكنز ، ولا أدرى إنْ كان من قبيل المصادفات أن يتخذ عثمان قراره المشهور بجمع القرآن بتحرير نسخة معتمدة منه ، واتلاف جميع النسخ المتداولة ، حتى ذلك الوقت . . وقد انتهزت هذه الفرصة لتحريف آية الكنز ، حتى

تطابق التأويل المقصود ، ولعل مما شجع عليه أنه لا يتطلب سوى حذف حرف واحد من الآية ، وقد نقل السيوطى فى « الدر المنثور » عن ابن الضريس « أنهم – لما أراد عثمان أن يكتبوا المصاحف . . أرادوا أن يلغوا الواو التى فى « براءة » والذين يكنزون الذهب والفضة » . . فاعترضهم أبىّ بن كعب ، وقال : لتلحقها أو لأضعنّ سيفى على عاتقى ، فألحقوها ، وأبىّ من المالئين لعلى ، وكان عضوًا فى لجنة جمع القرآن ، لكونه أحد القراء المعتمدين) . ص ٦٩/٧٠ .

وإلغاء الواو يؤدى إلى أن يصبح (الذين يكنزون الذهب والفضة) صفة للأحبار والرهبان فى الآية السابقة ، وبهذا يكون فريق الأغنياء حاول العبث بالقرآن من أجل إباحة الكنز .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر وقائع جمع القرآن ، فبين أيدى القراء كتب كثيرة قديمة وحديثة تتناول هذا الأمر بالتفصيل .

ونكتفى بقول الكاتب الألمعى ، معلقًا على هذا (التآمر) بأنه (كان مقدرًا له الفشل حتى ولو لم يضع أبى سيفه على عاتقه ، لأن القرآن أُحيط بحصانة شديدة ضد التحريف ، إذ كان معظم الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب) ص ٧١ .

وكأنه قد غاب عن عثمان بن عفان – وهو من الحفَظة – (أن الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب) ، ومن محفوظاتهم قول الله تعالى : (إنّا نحن نزّلنا الذّكْر وإنّا له لحافظون) ، وقوله جل شأنه (إنَّ علينا جمعه وقرآنه) . . ثم إن اللجنة التى شكلت لكتابة المصحف العثمانى كانت من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقد تقتصر الروايات على زيد وسعيد ، ولم يشترك أبى بن كعب إلّا فى اللجنة التى قامت بجمع المصحف وكتابته فى عهد أبى بكر ، ولقد كان زيد ثابت عضوًا فى اللجنتين ، وكانت مهمة اللجنة الثانية كتابة عدة نسخ من المصحف الذى جمع فى عهد أبى بكر ، فمن أين جاءت

هذه الأوهام[1] ؟!

أليست هذه (تنويعات) على دعاوى الشيعة أن عثمان حذف أكثر من ثلث القرآن فى حق على والأئمة من بعده ، دون توقر وتورع لدور هذا الصحابى الجليل فى نشر الدعوة الإسلامية وهو من العشرة المبشرين بالجنة ؟

(إن وجود نص فى الكتاب لتنظيم أحكام الميراث يفترض بالضرورة وجود المال الذى يورث وهذه لمن الحجج البالغة التى تؤكد ما سبق القول فيه من إلغاء تحريم الكنز وإباحة تملك المال) ص ٧١ ، بل (إن المقصود بكنز الأموال هو تجميدها ، والامتناع عن استثمارها) ، لأن (هذا التصرف يؤدى إلى حرمان المجتمع من ثروة يمكن أن تزيد فى قدراته الاقتصادية) ص ٧١ ، وفى هذا يقول الزمخشرى : (إن الله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده ما لا ، من حيث أذن له فيه ، ويؤدى عنه ما وجب ، ثم يعاقبه عليه) . ص ٧٤ .

إذن فالجمع بين آيات العفو والكنز والزكاة قائم على تنظيم التصرف فى المال ، إيجابًا وندبًا لصالح المجتمع ، وتقربًا إلى الله ، ومن ثم لا يكون تعارض ولا يكون نسخ .

والفريق الثانى يتمثل فى ثورة أبى ذر على البذخ والإسراف ، بعد اتساع الفتوحات وكثرة الفيء ، وهى ثورة ارتبطت بالغيرة على المجتمع الإسلامى ، وبالخوف من غواية المال ، كما ارتبطت بطبيعة تكوين أبى ذر ، إذ كان متصعلكًا قبل الإسلام ، وكان من أوائل الذين دخلوا فى الدين ليواجه السلطة القرشية المستبدة بمالها ، فقد تمرد على هذه السلطة قبل الإسلام وأراد أن يتحداها بالإسلام وبمجموعة المسلمين الكادحين ، أمثال عمار بن ياسر وأبيه ، وبلال ، وصهيب ،

---

(١) يراجع فى ذلك كتاب (تاريخ القرآن) للدكتور عبد الصبور شاهين - دار الكتاب العربى - القاهرة - سنة ١٩٦٦

وعامر بن فهيرة ، وزيد بن حارثة ، وخبّاب بن الأرتّ ، ولهذا (رفض أن يستفيد من الفرص التى أتاحها الفتح للصحابة ، وقد واصل معيشته البسيطة ومناوأته لأشراف قريش ، دون تفريق بين من أسلم منهم ومن لم يسلم) ص ٧٧ وهذا لا يمثل التزامًا بالمبادئ الإسلامية بقدر الالتزام بموقف ذاتى لا يملك معه أن يستجيب لمقتضيات الحياة الجديدة .

ولا شك فى أننا نختلف فى تقدير هذا الموقف والإعجاب به ، وفى النظر إلى صاحبه نظرة عطف وإشفاق ، وبخاصة أن غيره من الفقراء تغيرت بهم الحال ، وتمتعوا بالطيبات من الرزق .

لكن (هادى العلوى) يريد أن يشكل من أبى ذر فريقًا يرأسه الإمام على فى مواجهة (التيار الجديد) .

(إن تحريم الكنز كما بيّنت دراستنا يبدأ من آيتى العفو والكنز ، أى فى عهد محمد ، ومن هنا فالمشكلة ليست من صنع أبى ذر ، وإنما هى بالأحرى من صنع الكتلة التى ينتمى إليها أبو ذر ، ويتزعمها على بن أبى طالب) ص ٨٤ .

ويتساءل (عن السر فى أن أبا ذر هو الذى تولى إثارة هذه المشكلة فى عهد عثمان ، وليس على بن أبى طالب الذى كان أبو ذر يعمل تحت لوائه) .

ويجيب بأن (الظروف المحيطة بعلى بن أبى طالب لم تهيئ له مجابهة صريحة ضد الخليفة الثالث . . وأنه أرسل ولديه الحسن والحسين ، وأمرهما بالدفاع عن عثمان لمّا حُوصِر فى داره ، مناورة أراد بها دفع التهمة عن نفسه ، ومن هنا كان يجب أن يتصدر المجابهة شخص آخر يمثله فيها ، ويتحمل مسئوليتها عنه) ص ٨٥ .

ونتساءل نحن : ماذا فعلت بقية (الكتلة) التى كان ينتمى إليها أبو ذر ؟

ولماذا كان على بن أبى طالب زعيم الكتلة (مالكًا لأرض زراعية ، ونقد يُعَدّ بعشرات الألوف) ؟ ص ٨٧ .

وإذا كان أبو ذر قد نشأ فقيرًا ، وعاش فقيرًا ، ومات فقيرًا ، والتزم بنص تحريم

الكنز ، فما الحاجة إلى أن يلقن (الفقر) عن مزدك ، سواء جاء هذا القول عن الأستاذ أحمد أمين أو عَن غيره ؟ .

وهل لمجرد أن يكون (سلمان) فارسيًّا ، وكان اسمه روزبة بن خشنودان ، أن يصبح حاملا لجرثومة المزدكية - فلماذا إذن لم يقم بدور أبي ذر ، أو بالوقوف إلى جانبه ؟ .

يقول هادى العلوى ، رواية عن أم المؤمنين عائشة : (كان لسلمان مجلس من رسول الله ، ينفرد به فى الليل ، حتى كان يغلبنا على رسول الله) ، فماذا كانا يفعلان فى هذه الجلسة الخاصة ؟

يقول : (لابد أن يثير هذا المجلس الليلى الاعتقاد بأن محمدًا كان يتلقى من روزبة أمورًا خاصة تتعلق بمسيرة الدعوة على صعيد معين . . ومن المرجح أن تحريم كنز الأموال الذى كان يعنى ضربة مباشرة ونافذة ضد الأرستقراطية ، هو أحد أبرز علامات هذا التأثير) ص ٨٠/٧٩ .

يقصد أن آية الكنز إنما هى من تأثير الأفكار المزدكية التى نقلها سلمان إلى (محمد) ومن ثم فالقرآن ليس من صناعة محمد وحده ، وإنما شاركه فى تأليفه غيره (! !)

وقد يرد سؤال حول آيات الزكاة والمواريث لكن الأمر قد خرج عن دائرة السؤال والجواب ! !

الفكر العربى من وجهة نظر استشراقية . .

هاملتون جب أصدر كتابًا بعنوان (المدخل فى الأدب العربى) ترجمة كاظم سعد الدين ، (والكتاب مكرس للأدب العربى فى أعم فروعه) ، وقد جاء فى الصفحة ٦٣ :

(يعتقد المسلمون أن القرآن كلام الله الذى أوحاه إلى محمد . . غير أن الطالب

الغربى المدرك أن القرآن من عمل محمد يجد كثيرًا من أهميته فى الطريقة التى يكشف بها القرآن التطور التاريخى لشخصية خلابة . . الخ) ص ٩٣ .

وقد آثارت هذه العبارة هادى العلوى ، لا لأن (جب) تحدث عن الرسول محمد بغير صفة الرسالة ، ولا لأنه تناول القرآن على أنه من عمل (محمد) ومن ثم فهو يعبر عن التطور التدريجى (لشخصية) صاحبه – بل ما أثاره هو (تلك الصورة التى ترسمها لعقليتين متقابلتين : عقلية المسلمين الدينية ، وعقلية الباحث الغربى العلمانية .

إن مثل هذا التقابل ينطوى على قدر كبير من الافتعال . فكون الباحث غربيًّا لا يعنى بالضرورة أنه يفكر تفكيرًا علمانيًّا .

إن هذا الباحث الذى يقول ما قال عن القرآن قد يظل عاجزًا عن إدراك أن أسطورة التكوين مثلا من عمل موسى ، أو أن العهد الجديد من تلفيقات الرسل ، ولأمسك عنان القلم حذرًا من سوء الفهم .

إن اللاهوت – عَدَّ عن السحر والشعوذة والكهانة – قد لقى ويلقى فى الفكر الغربى القديم والمعاصر عناية ، إن لم تزد على ما لقيه عند الشرقيين فإنها على الأقل تضاهيه ، فمثلما يحتاج الإنسان إلى العلم لكى يتقدم ، يحتاج إلى الخرافة لكى يمارس الاستغلال والنهب والسيطرة على غيره . . ولم يتوقف هذا التلازم إلّا مؤخرًا ، وعلى حدود المجتمعات التى أسعفها الحظ فاتخذت من الاشتراكية نظام حياتها (! !) .

فمن المعلوم أن الحضارة الإسلامية لم تقتصر على النشاط الدينى ، وإنما شملت تصارعات الفكر الإنسانى باتساعه الذى بلغه فى تلك الحقب) ص ٩٣/٩٤ .

إذن (يحسن صوغ العبارة موضوع البحث على الشكل الآتى :

« إن المسلمين – المتمسكين بعقيدتهم الدينية – يعتقدون المسألة الفلانية ، ولكن الباحث العلمى يرى خلاف ذلك » ص ٩٥ .

وبهذا لا تشمل العبارة أمثال الباحثين العلمانيين ، أمثال هادى العلوى ، وإلا اضطر إلى أن يطالب برد شرفه .

أما أن يستمر (جب) فى وصف الأسلوب القرآنى - شكلا ومضمونًا - بأنه (يعبر عن آراء محمد الشرعية والفلسفية بعبارات من الحدث والوصف الرمزيين) ، وأنه (أنجز فنًا شخصيًا للغاية جديدًا متميزًا)[1] فهذا لا يحتاج من الكاتب الذى يعلن عن (شيعيته) إلى مناقشة ، أما ما يمس (شيوعيته) فهذا هو العار والشنار .

من فصول المسرح الدينى فى الوطن العربى :

تحت هذا العنوان يتحدث عن مآخذ مختلفة على ألوان من النشاط الدينى ، أكتفى بعرض أفكاره ، دون حاجة إلى تعليق . .

١ - (أقيمت مؤسسات ونفذت مشاريع تهدف إلى تدين المجتمع العربى ، على حساب الأهداف الملحة التى تطرحها الحياة بلا توقف) ص ١١٠ .

(إن هذه الأجهزة الحيوية التى تضم الإذاعة والتليفزيون والسينما تفرض ضغطًا دينيًا متزايدًا على الرأى العام فى الوطن العربى ، وقد تبوأت السينما والتليفزيون المصريان مركزًا قياديًا فى هذه المعمعة شأنها فى معامع الغناء والرقص الشرق والأفلام السينمائية السيئة الصيت ، فمنذ أوائل الستينات ، والجبهات المعنية فى مصر تنتج المزيد من الأفلام والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية ذات المحتوى الدينى إضافة إلى ما كانت تنتجه فى السابق من الأغانى الدينية والأدعية والتواشيح وتغذى بها أجهزة الإعلام ودور السينما العربية والأجنبية .

ويتذرع مهندسو هذه المشاريع بحجة إثارة الهمم ، والتذكير بالأمجاد أما فى الواقع فإنها موجهة للتذكير بالمضمون الدينى للأحداث ، بعيدًا عن أى مغزى

---

(١) انظر الكتاب المذكور - طبعة بغداد ه سنة١٩٦٩ - ص ٣٧/ ٣٨ .

اجتماعى يمكن للمؤرخ أن يستخلص من بين الشعارات الدينية البالغة التطرف) ص ١١١/١١٢ .

٢ - (تتفق الأنظمة العربية على جعل الدين مادة أساسية للدراسة فى المراحل السابقة للتعليم الجامعى ، وتطغى على مناهج الدراسة الدينية فى هذه المراحل نبرة وعظية باردة ، وفكر غيبى يتجافى بشكل مؤسف مع روح العصر) ص ١١٦ .

٣ - (إن نظرة سريعة على هذا العصر ترينا أن الدول التى حافظت على تواصلها مع الدين لا تخرج عن إحدى صفتين :

(ا) دول تستخدم الدين لغايات أيديولوجية أحوج إليها الصراع ضد الطبقات المحكومة .

(ب) دول متخلفة تسعى على سبيل المثال دولا نامية .

وقد أرجع هيجل أسس الدين إلى الشعور بالعجز عن تصور المثل الأعلى فى الوجود (! !) .

وفى ضوء هذه الحقيقة فقد يغدو من السهل أن ندرك لماذا كان النشاط الدينى فى الدول العربية مثلا أكثر ابتذالا مما هو فى دول أوربا الرأسمالية أو فى الولايات المتحدة . إنه يرجع فى الأرجح إلى الفارق الحضارى بيننا وبينهم .

ونجد المجتمع المتقدم عمليًا وتقنويًا حلولا للكثير من المشكلات التى يقف الإنسان البدائى أمامها ميهوتًا ، فيلجأ فى تعليلها أو فى مواجهة أخطارها إلى الدين) ص ١٢٥/١٢٧ .

٤ - (السيد اليزدى هو أكبر مجتهد شيعى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وتعد كتبه مصدرًا رئيسيًا للدراسات الفقهية والكلامية فى الوقت الحاضر) ، ومع هذا (كان يتولى بنفسه تنشئة كوادر من كبار الموظفين أو العسكريين الإنجليز تكون مؤهلة للعمل فى العراق أو البلاد العربية والإسلامية الأخرى) ١٣٢/١٣٣ .

٥ - (آية الله الشيرازى ، وهو من علماء الدين فى كربلاء ، لديه رسالة فقهية بعنوان « أحكام الإسلام » طبعت مؤخرًا وقد جاء فيها فى باب أحكام الصلاة : إن الصلاة لا تصح فى مكانين هما :

(ا) الأراضى التى استولى عليها الإصلاح الزراعى بعد أن كانت فى حوزة الإقطاعيين .

(ب) المعامل التى أممّها الحكومة) ص ١٣٤ .

٦ - يقول الغزالى : (ليس الغرض بناء مسجد فى كل سكة والفقراء محتاجون) ، ومع هذا يتبارى المسلمون فى بناء المساجد .

و (اقترنت بعض المساجد بفضائح مالية ، كالمسجد الذى بنى فى عهد حكومة عارف فى العراق ، واستمر بناؤه أكثر من سبع سنوات ، أما مساجد الشيعة - وتسمى حسينيات - فبنيها التجار الذين ينهبون الناس فى النهار ، ويبكون على الحسين فى الليل) ص ١٣٧/١٣٨ .

* * *

وبالإضافة إلى هذا هاجم الطقوس التى تجرى فى المناسبات الدّينية المختلفة وبخاصة ما يتصل بالشيعة منها فى المحرم وصفر ، كما هاجم إدارة الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية .